

الوظيفة الأدبية

بين الفكر النقدي الغربي والفكر النقدي العربي

literary function between western critical thinking and
Arabic critical thinking

د. بختي البشير *

تاريخ الاستلام: 24-09-2019 تاريخ القبول: 09-02-2020

doi 10.33705/0114-023-004-014

التعريف الرقمي للمقال:

ملخص: قام الأدب منذ القديم، بأدوار مهمة في المجتمعات الإنسانية ولا يزال، وقد تنبه المشتغلون بالحقل الفلسفي إلى أن الأدب يمكنه أن يحمل قضاياهم إلى القارئ، بفضل ما يتمتع به من خصائص تمكنه من استقطاب الناس والتأثير في سلوكهم وحياتهم.

ويعد "جان بول سارتر" من أبرز الفلاسفة الذين استخدموا الأدب، بعد أن وضع وظيفة جديدة للأدب وهي وظيفة "الالتزام". كما أشار طه عبد الرحمن أثناء مراجعاته لأعمال الجابري، إلى فكرة قريبة من فكرة الالتزام لسارتر، وتتمثل في ارتباط "العلم بالعمل" وقد عملنا على دمج الفكرتين في هذا البحث في محاولة للوصول إلى وظيفة تناسب تطلعاتنا، كمجتمع عربي يتأثر بالأدب ويعمل به.

كلمات مفتاحية: الوظيفة الأدبية؛ الالتزام؛ الأدب؛ ارتباط العلم بالعمل.

* جامعة المسيلة، الجزائر، البريد الإلكتروني: bachir.bakhti@univ-msila.dz (المؤلف المرسل)

Abstract: Literature has always played an important roles in human societies and still . philosophers brings out the fact that literature can carry their issues to the reader, due to its characteristics that enable it to attract people and effect their behavior and lives. Jean-Paul Sartre is one of the most famous philosophers who use literature, having developed a new function of literature, the function of "commitment." In his reviews of al-Jabri's work, Taha Abdel-Rahman pointed to an idea close to Sartre's commitment : the link between 'science and work We have sought to integrate the two ideas in this research trying to reach a function that suits the aspirations of our Arab society, which is influenced by literature and works.

Keywords: literary function; commitment; correlation between science and work -receiving; literature.

مقدمة: جسد الأدب ووظائف كثيرة، منذ أن ظهر لأول مرة على شكل أساطير وحكايات خرافية إلى أن صار بهذا التنوع، وقد بدأ بتفسير الظواهر الكونية فكانت أولى خطواته في فهم الوجود كما متع الأرواح وجلا همومها وأحزانها وسحر الأبواب بحسن تركيبه ودهشة قوله. وأما في الحرب، فقد عبر عن قومه، فكان لسان حالهم. وانبرى بعد ذلك، ينقد ظروف الحياة ومصاعبها ويسخر من أحداثها وينقم على السلطة الجائرة وينير طريق الحائرين وغيرها من الوظائف الأخرى.

وبحلول عصر الحداثة الغربية وصعود التيار المادي الغربي انتهت الحروب الكبيرة وخلت الساحة الفكرية من البدائل السياسية والاقتصادية ورُسمت حقوق الإنسان في الهيئات الأممية وعم الرخاء وساد الأمن وارتفعت قيمة الإنسان.

إلا أن المجتمع العربي، ما زال يزرع في تخلفه السياسي والاجتماعي والثقافي ويتطلع إلى عالم تسوده العدالة والقيم الأخلاقية بعد أن تورط في الحداثة الغربية رغبة منه في الوصول إلى ما وصل إليه الغرب من تطور وفي كل هذا يحق لنا أن نسأل ماذا بقي للأدب من أدوار يقوم بها؟

ولماذا الأدب في حياتنا؟ وما الهدف منه؟ ولماذا ينتج ويقرأ؟ وهل مازال يعني الكثير للقراء في وقتنا الحالي المتخمي بكل شيء ابتداء من المعرفة العلمية إلى المعرفة الإنسانية، إلى إنتاج أدبي غير معهود، كل هذه الأسئلة وغيرها مازالت تثير جدلاً في أوساط الفكر النقدي. وحرص الفلاسفة والنقاد منذ القديم على تقديم نظرتهم حول الوظائف التي يمكن أن يؤديها الأدب، كما أسهمت النظرية الأدبية هي الأخرى في البحث عن هذه الوظائف وذلك في مختلف المدارس الأدبية الحديثة، إلا أننا نجد فيلسوفاً وأديباً في القرن الماضي وهو "جان بول سارتر" يشير في مراجعاته الفكرية والفلسفية إلى مفهوم ثوري جديد في الأدب ويتمثل في "الالتزام" وما يمكن أن يلعبه هذا المصطلح في توجيه الأدب وما يقوم به من أدوار مهمة في الحياة الإنسانية.

كما طرح طه عبد الرحمن في كتابه تجديد المنهج في تقويم التراث فكرة قريبة من فكرة الالتزام ولها علاقة بها وتتمثل في ارتباط "العلم بالعمل" في الإسلام ويمكننا أن نقارب بين هذين المفهومين في تحديد الوظيفة الأدبية.

1- الوظيفة الأدبية في الفكر النقدي الغربي:

1-2 - الوظيفة الأدبية من أرسطو إلى النظرية الأدبية الحديثة: ظهر

الحديث عن الوظيفة الأدبية، عند "أرسطو" في كتابه فن الشعر الذي قدم فيه نظريته حول ماهية الأدب وطبيعته. وقد أشار أرسطو، في معرض حديثه عن الوظيفة الأدبية إلى أن الذي يجذب القراء إلى الأدب هو حب الإنسان للتعلم الذي يحصل عن طريق محاكاة الشخصيات وتقليد المواقف والأحداث التي يجسدها الأدب، يقول: «أن الإنسان يشعر بمتعة إزاء أعمال المحاكاة والشاهد على ذلك هو التجربة، فمع أننا يمكن أن نتألم لرؤية بعض الأشياء إلا أننا نستمتع برؤيتها هي نفسها وهي محكية في عمل فني... وسبب استمتاع الإنسان برؤية صورة هو أنه يتعلم منها»¹.

وإذا كان الإنسان يحب التقليد ويولع به، فلائنه وسيلة للمعرفة غير أن هذه المعرفة لا تكاد تخلو من الألم الناتج عن تأثره لما يحدث للشخصيات المجسدة في العمل الأدبي، يقول "أسخيلوس": «تألم لكي تتعلم»². وتأتي تلك الانفعالات من تعاطفنا مع الشخصيات التي ينالها الأذى من دون وجه حق. كما قد نحس بها بسبب خوفنا من أن يصيبنا الأذى

نحن أيضا، "فتثير فينا شعور التعاطف الإنساني العام الذي نحسه تجاه الآخرين ولأنها لا تثير شفقة أو خوفا لأن الذي يثير الإحساس بالشفقة هو ما يقع من سوء لشخص لا يستحق أن يشقى والذي يثير الخوف هو ما يقع من أخطار لشخص يشبهنا"³.

إلا أن "أفلاطون" عارض مفهوم الوظيفة الأدبية "لأرسطو"، لأن الإنسان لن تكون له القدرة في التحكم في مشاعره وهو يتابع هذه الانفعالات، يقول: «الواقع أن القليل من الناس هم الذين يدركون أن المشاعر التي تنتاب الآخرين تنتقل حتما إليهم هم أنفسهم ومن ثم، فإن الشعور بالألم الذي تزيده رؤية شقاء الآخرين قوة يكون من الصعب التحكم فيه عندما يصيبنا نحن»⁴، كما يمكن للقارئ أن يشعر بعكس الانفعالات التي يجدها عند الشخصيات، يقول: "أنه لعب فادح حقا إذا كان للشعر مثل هذا التأثير... أن أفضل الناس منا عندما يستمعون إلى إحدى قصائد هوميروس أو أي شاعر تراجيدي آخر وهو يصور بطلا يروي أحزانه في قصيدة مطولة أو يندب حظه بالعويل وضرب الصدر يشعرون عندئذ باللذة وهم يتابعون العرض متعاطفين معه كل التعاطف ويعجبون بعبقريّة الشاعر الذي يثير فينا على هذا النحو أقوى الأحاسيس ... عندما يصيبنا الحزن نحن أنفسنا فأنتك تلاحظ أننا نفخر بالصفة المضادة، أي نحاول أن نعتصم بالصبر والسكينة واثقين أن هذا المسلك اللائق بالرجال، وأن من الواجب أن نترك للنساء ذلك المسلك"⁵. وأشار أرسطو أيضا إلى وظيفة مهمة هي الوظيفة التطهيرية وقدرتها على تطهير الإنسان من انفعالاته الزائدة «يقول البعض أن وظيفة الأدب هي أن يخلصنا كتابا وقرأ من عناء الانفعالات فالتصريح بالانفعالات يحررنا منها وقد قيل أن غوته قد حرر نفسه من آلام العالم بتأليف آلام فتر»⁶، غير أن العملية التطهيرية التي يقوم بها الأدب ليست دائما ناعمة لأن هذه الانفعالات تُستهلك ويصير الإنسان، في الحياة الواقعية، غير قادر على التعاطف مع الآخرين والتضامن معهم.

بينما يؤكد "أفلاطون" في كتابه الجمهورية، على أن وظيفة الشاعر الأساسية أنما يجب أن تكون وظيفة أخلاقية تشيد بالقيم والفضائل الإنسانية، يقول: «علينا أن نسلم معهم بأن هوميروس كان أول الشعراء التراجيديين وأعظمهم ومع ذلك فلتكن على ثقة من أننا لا نستطيع أن نقبل في دولتنا من الشعر إلا ذلك الذي يشيد بفضائل الآلهة والأخيار من الناس»⁷ لأن الشاعر أنما يصور أحداثا خيالية غير واقعية وهو أبعد أن يلتزم

بها لذلك تراه يضع الفلسفة في أعلى الدّرجات لأنّها تعنى بالحقيقة التي يرغب أفلاطون في إظهارها.

ولذلك يفرض أفلاطون على الشعراء، أن يكون شعرهم في خدمة أمتهم وغيرهم من عامّة النّاس، يقول: «يجب أن يكون نافعا للدولة وللحياة البشريّة وسنستمع إليهم بصدر رحب وإذا أنّه من المفيد لنا أن يثبتوا أنّه يجمع بين بعث السّرور في النّفوس، وبين الفائدة العلميّة»⁸.

وبحلول القرن التّاسع عشر سادت الرّوح العلميّة جميع مناحي الحياة، وتأسّست أغلب العلوم الإنسانيّة، ووضع دي سوسير نظريّة علميّة في اللغة. وقد أحدث هذا التّطور نقلة نوعيّة في الدّراسات الأدبيّة. ووجدت النّظريّة الأدبيّة، هي الأخرى، طريقها إلى فهم الأدب وفق أسس علميّة من أجل علمنته واهتمت بالوظيفة الأدبيّة وما يمكن أن يهدف إليه الأدب.

وقد اتّضحت معالم الوظيفة الأدبيّة عندما كشف النّقاد عن الخصائص التي تفصل اللغة الأدبيّة عن اللغة العاديّة، «فتتميز اللغة الأدبيّة في أنّها تكتظ بالالتباسات كما أنّها ملأى بالجناس وبالتّصنيفات اللاعقليّة والاعتباطيّة كصيغ التّذكير والتّأنيث، كما تتخلّلها الأحداث التاريخيّة والذّكريات والتّداعيات. وبالاختصار فهي شديدة التّضمين وهي لغة تنقل لهجة المتحدّث أو الكاتب وموقفه وتريد أيضا أن تؤثر في القارئ»⁹، ومن خلال هذا التّمييز بين اللغة العاديّة واللغة الأدبيّة أمكن تحديد الوظائف المهمّة التي يهدف إليها الأدب والتي من أهمّها التّأثير في القارئ، أي الوظيفة الجماليّة، وأيضا الوظيفة التّعليميّة فبإمكان الأدب أن يكون كوثيقة تاريخيّة ويصلح للاستشهاد به لأنّه ينقل وقائع أحداث عصره، كما يمكن أيضا أن ينقل شيئا عن لغة الكاتب وشيئا عن نواحي نفسيّته ومجتمعه الذي يعيش فيه، «يستطيع الأدب بوضوح أن يأخذ مكان أشياء عديدة مكان التّرحل أو الإقامة في بلاد غريبة مكان الخبرة المباشرة، بديل وهي عن الحياة، ويمكن أن يستعمله المؤرخون كوثيقة اجتماعيّة»¹⁰، إلّا أنّ الشّعريّمكنه أن يتفوق على العديد من المعارف الإنسانيّة لأنّه يستطيع أن يخبرنا عمّا سيجري مستقبلا وليس فقط نقل الأحداث كما يعمل التّاريخ، لذلك فهو أفضل من الفلسفة، بل إنّ الشّعور «شكل من أشكال المعرفة وقد بدا أنّ أرسطو يقول كلاما مشابها في قوله المأثور

أنَّ الشَّعر الصَّق بالفلسفة من التَّاريخ، مادام التَّاريخ، يروي أموراً حدثت أمَّا الشَّعر فيروي أموراً يمكن أن تحدث»¹¹.

كما أنَّ كلاً من المسرح والرَّواية يمكنهما أن يقدِّما لنا معارف نفسية عن الإنسان أفضل ممَّا يقدِّمه علم النَّفس، «من بين قيم المعرفة في المسرحية والرَّواية يبدو أنَّ هناك قيمة بسيكولوجية، بإمكان الرّوائي أن يعلمك عن الطَّبيعة البشرية أكثر من عالم النَّفس»¹²، ولأنَّ الشَّعر يتميز بخاصية المحاكاة فهو يقدِّم صوراً تقريبية عن واقعنا أو عن شيء تعلَّمناه سابقاً، «أنَّ وظيفة الشَّاعر هي أن يجعلنا ندرك ما نرى ونتخيل ما سبق أن عرفناه سواء بشكل تصوُّري أو عملي»¹³، وبخصوص الوظيفة الجمالية في النِّظريَّة الشَّكلانية، تأتي من تغريب اللغة اليومية وتحريفها بطريقة تجذب انتباهنا، كما أنَّ "العمل الشَّعري لا يقتصر على الوظيفة الجمالية وحدها، بل أنَّ له وظائف أخرى كثيرة ... لأنَّ العمل الشَّعري يمتلك وظيفة إشارية للتَّاريخ الثقافي، أو العلاقات الاجتماعية أو السَّيرة"¹⁴.

1-3 - الوظيفة الأدبية عند "جان بول سارتر": يُعتبر "جان بول سارتر"

واحداً من الذين مزجوا بين الفلسفة والأدب والتَّزموا بقضايا الفكر الحدائ، وذلك بعد أن أراح عصر التَّنوير منظومة التَّفكير الديني الغيبي وفكَّها. كما كان لظهور التيار اليساري أثره في التَّفكير الحدائ بعد سيطرة الفكر البرجوازي وقبله الفكر الاقطاعي. لذلك بات، من الضَّروري، إيجاد مفاهيم جديدة لمعنى الوجود الإنساني. وكان لآبد "لسارتر" وهو صاحب مذهب الوجودية أن يبحث عن الفن الملائم لصياغة هذه المضامين الفلسفية، وقد وجد في الأدب وسيلة لنشرها، ثمَّ إنَّه كان عليه أن يستخدم فن النَّثر، لقدرته على توصيل الموضوعات والمعاني. وقد وضع في كتابه ما الأدب؟ مجموعة من الحجج للتدليل على تفضيله لهذا الفن دون غيره.

اعتبر "سارتر" أنَّ اللغة عند الشَّعراء غير نفعية، لأنَّهم لا يفكِّرون في الدَّلالة على العالم وما فيه، وبالتالي لا يرمون إلى تسمية المعاني بالألفاظ. والشَّاعر لا يستخدم اللغة أمَّا النَّثر فدائماً ما يحاول أن يتقرَّب من كلماته للوصول إلى الغاية من حديثه

كما أنّ الشاعري الكلمات من جانبها المعكوس وكل لفظ من هذه الألفاظ لديه مظهر مادي لكنّه مختلط بالمعاني الأخرى، وبهذا المسلك الشعري حيال الكلمات، تتحقّق في كل كلمة أنواع المجاز.

وفي فن النثر، فإنّ مادته بطبيعتها ذات دلالة: أي أنّ الكلمات قبل كل شيء ليست بأشياء، بل هي ذات دلالة على الأشياء¹⁵.

بعد أن اختار "سارتر" فن النثر وسيلة لنشر أفكاره، تسنى له، بعد ذلك، أن يطرح وظيفة أدبيّة جديدة تمثلت في قضية "الالتزام" وهي فكرة تجسّد الغاية من الأدب في عصره.

وقد ورد مفهوم الالتزام في المعجم الفلسفي على أنّ: «الرجل الملتزم هو الذي يوجب على نفسه أمراً لا يفارقه، ومنه العقل الملتزم وهو الذي ينظر إلى ما تتضمنه من النتائج الاجتماعية والأخلاقيّة بعين الجد والرّصانة، أو العقل الذي يقربوجوب وفائه بعهده وبضرورة محافظته على حق الأمانة في تأديّة رسالته ومن شرط هذا الالتزام أن يكون له غاية اجتماعيّة أو خلقيّة وأن يكون مبنياً على مبدأ يقبله المرء بإرادته العاقلة»¹⁶، يؤكّد هذا المفهوم على أنّ الملتزم يجب أن يكون وفيّاً للقضايا التي يطرحها ويؤمن بها، وهي لا بد أن تؤدي دوراً اجتماعياً وأخلاقياً، تسهم في تطوير المجتمع الإنساني.

وفي حالة "سارتر" فإنّ مفهوم الالتزام يعني: "أنّ الكاتب يختار لنفسه رسالة تتمثل في الكشف عن سر الإنسان"¹⁷، وتعدّ قضية فهم الوجود الإنساني، قضية فلسفيّة تناولها العديد من الفلاسفة ومن بينهم "مارتن هيدغر" و"هانس جورج غادامير" و"بول ريكور" وغيرهم.

ويشترط "سارتر" على الكاتب الملتزم جملة من الشّروط حتى ينتهي عمله بالنّجاح ولعل أهمها ما يلي: أن يكون طرحه قوياً وأن يبتعد عن مظاهر الاسفاف وابداء الضّعف والهوان للناس حتى يحالفه التّوفيق، يقول: "أنّ على الكاتب أن يكون التّزامياً في كل ما يكتب، وأن يربأ بنفسه عن أن يلعب دوراً سلبياً مسفها بعرضه مساوئه ووجوه شقائه ومظاهر ضعفه، بل عليه أن يتمثل إرادة حازمة تشق طريقها إلى النّجاح عن قصد، على

نحو ما عليه كل إنسان في الحياة من أنه في نفسه محاولة، على حدة، من محاولات الوجود¹⁸.

1- 4 - نموذج من أدب "الالتزام" لجان بول سارتر: كتب "سارتر" رواية

الجدار بوصفها نموذجا لأدب الموقف، وتعبيرا عن التزام وجودي من الحياة ومن مسألة الحرية، وتدور هذه القصة حول مجموعة من السجناء السياسيين الجمهوريين الموجودين في المعتقل الفاشي تحت إمرة جنود "فرانكو" وقد صدر في حقهم حكم بالإعدام.

تبدو الحياة في نظر السجناء الذين ينتظرهم حكم الإعدام، وكأنها بلا معنى، لينصب تركيزهم على نقطة واحدة وهي الموت. وتعد رواية الجدار تجسيدا حيا لفكر "سارتر" في وصف المشاعر الإنسانية وهي تواجه أقصى لحظات الحرج في أصعب المواقف وتحليله الدقيق في ردود أفعال الشخصيات وهي تجاهد نفسها، يقول "سارتر" على لسان أحد السجناء: "منذ بدأت أستعد للموت لم يعد أي شيء يبدو لي طبيعيا: لا هذه الكومة من الفحم المسحوق ولا هذا المقعد ولا "بدرو" القذر غير أنه لم يكن يعجبني أن أفكر بما يفكر فيه "طوم". وكنت أعلم حق العلم أننا طيلة الليل وبفارق خمس دقائق فقط كنا نتابع التفكير بالأشياء ذاتها في الوقت نفسه أيضا، وأن العرق يتصبب منا معا. ولأول مرة بدا لي غريبا كان وجهه حاملا الموت لقد طعنت بكبريائي أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار "طوم"، وأعرف أن ما من شيء مشترك بيننا. أما الآن، فإننا نتشابه كالأخوين التوأمين لمجرد أننا سنلاقي حتفنا معا"¹⁹. نلاحظ أن سارتر يخلق مواقف من الحياة بعيدا عن الدين وعن الفكر البرجوازي الذي عاصره وعن القيم السائدة في المجتمع ويحاول أن يقدم لنا فهمه الوجودي وكيف يستطيع الإنسان العادي أن يجابه الحياة وهو يعيش في أشد المحن.

يقول "سارتر" على لسان أحد الشخصيات في الرواية: "كنت أرى الأشياء بشكل غريب، فقد كانت أكثر اختفاء وأقل وزنا من المعتاد، إذ كان يكفي أن أنظر إلى المقعد والسراج وكومة الفحم المسحوق، حتى أشعر بأني سأموت، لم أكن لأستطيع أن أفكر في موتي بصفاء، لكني كنت أراه أينما كان على الأشياء في الشكل الذي تراجعت به الأشياء ووقفت بعيدة بتحفظ، كأشخاص يتكلمون بصوت خافت قرب فراش إنسان يموت"²⁰. وبدل أن يكتفي "سارتر" بما عهده من أفكار ومفاهيم جاهزة مسبقة، فإنه يحاول أن يخط

فكرا حدثيا يواجه فيه الإنسان مصيره بثبات وإرادة، يقول "سارتر": "أن الوجودية فلسفة تضع الإنسان في مواجهة لذاته، حرا يختار لنفسه ما يشاء"²¹، ويستبعد "سارتر" أن تكون الطبيعة الاجتماعية أو النفسية أو الحالة الدينية التي يعيشها الفرد هي التي تفرض تأثيرها على قرارات الإنسان وأنما يرى أن الإنسان هو سيد نفسه وأنه هو من يختار أن يكون مثالا للشجاعة أو الجبن، يقول: "أن الإنسان يوجد أولا ثم يترك بالعالم الخارجي فتكون له صفاته ويختار لنفسه أشياء هي التي تحدده، فإذا لم يكن للإنسان في بداية حياته صفات محددة فذلك لأنه قد بدأ من الصفر. بدأ ولم يكن شيئا وهو لن يكون شيئا إلا بعد ذلك ولم يكن سوى ما قدره لنفسه"²².

2 - الوظيفة الأدبية في الفكر النقدي العربي القديم:

2-1 - الوظيفة الأدبية من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي: عُرف

الشعر في العصر الجاهلي على أنه ديوان العرب، وقد جمع فيه الشعراء خلاصة تأملاتهم في الحياة واشادتهم بالخصال العربية الكريمة، فلم يكن لهم علم أصح من شعرهم يقول ابن خلدون: «واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم»²³.

وقد نظم العرب في العصر الجاهلي كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنون الشعر وأغراضه كالفخر والحماسة والهجاء والوصف والرثاء والمدح والاعتذار والحكمة والمثل والاشادة بالفضائل والأخلاق، وقد كان الإنسان الجاهلي يطرب للشعر في مضامينه وشكله ويحس بحلاوة تركيبه ودقة وصفه وعباراته المسبوكة وكانت تقام أسواق تعرض فيها الأشعار وتتنافس، ومنها سوق عكاظ.

وبنزول الوحي على سيدنا محمد (ص)، رفض الإسلام بعض المضامين الشعرية الجاهلية واعتبرها منافية للقيم التي جاء بها، كالهجاء والغزل الماجن والوصف الصريح يقول الله تعالى: «وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»²⁴، يقول الظاهر بن عاشور في تفسير الآيات السابقة: «ومثلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة لأن الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن نسيب وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه

رغبة في عطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذم من يمنعهم وأن كان من أهل الفضل، وربما ذموا من كانوا يمدحونه ومدحوا من سبق لهم ذمه»²⁵، يلاحظ في تفسير الطاهر بن عاشور للآيات السابقة أن الإسلام استهجن هذا النوع من الشعر ورفضه بسبب عدم التزام الشاعر بقضية عادلة يدافع عنها، بل تراه ينظم شعره على حسب أهوائه ومصالحه، وأحيانا، كيفما اتفق.

وبعد ذلك اندمج الشعر في العصر الإسلامي الأول مع الدين الوافد، وحمل وظائف جديدة راعت ظروف الدعوة الإسلامية الناشئة، كالتعريف بالدعوة المحمدية والإشادة بالفضائل الأخلاقية والدفاع عن النبي محمد (ص) من تهجم أعدائه. ويات الشعر يتحاشى قدر المستطاع ما يسيء للآخرين في سمعتهم وكرامتهم الإنسانية، مع بقاء بقية الأغراض الشعرية المعروفة في العصر الجاهلي.

وفي العصر العباسي اتسعت معارف الناس واتخذ الشعر والنثر أغراضا وأهدافا عديدة منها التعلم ومنها للمتعة ومنها ما هو موجه للاتجاهات الدينية والسياسية.

2-2 - الوظيفة الأدبية في الفكر النقدي العربي الحديث: ظهر النقد

الأدبي العربي الحديث، بعد انطلاق النهضة العربية التي بدأت بحملة نابليون إلى مصر سنة 1798م، وقد انقسم النقد إلى اتجاهين رئيسيين أحدهما محافظ، والآخر حداثي.

تأسست مدارس أدبية ونقدية عديدة ونأخذ، على سبيل المثال، مدرسة الديوان ونظرتها للوظيفة الأدبية في ظل تبنيها للمذهب الرومانسي: ويظهر أن نقدها هو أيضا مستمد من ذات المذهب، لأن ما جاء على لسان عبد الرحمن شكري يؤكد هذه الصلات يقول: «أن وظيفة الشعر في الإبانة عن الصلات التي تربط أعضاء الوجود ومظاهره. والشعر يرجع إلى طبيعة التأليف بين الحقائق ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون الشاعر بعيد النظر. فيميز بين معاني الحياة التي تعرفها العامة وأهل الغفلة. وبين معاني الحياة التي يوحى إليه بها الأبد»²⁶، يبدو أن الوظيفة الأساسية التي يضطلع بها الشاعر في مدرسة الديوان هي كشف أسرار الوجود وهي نفس الدعوة التي تنادي بها الرومانسية وهي "الكشف عن مظاهر الجمال في الوجود، بجانب توفير المتعة للقارئ التي يحسها في معاني الشعر وصوره"²⁷.

3 - الوظيفة الأدبية في ضوء فلسفة طه عبد الرحمان: طرح طه عبد

الرحمان فكرة ارتباط "العلم بالعمل"، في كتابه تجديد المنهج في تقويم التراث في اطار نقده لأعمال الجابري؛ وتأسيس ما يشبه المنهج العربي الإسلامي الذي يمكنه من قراءة التراث وتقويمه، يقول: «يتميز العلم في التراث الاسلامي بكونه لا ينفك عن العمل، ولا نكاد نجد عالما اشتهر في الناس الأخذ عنه، إلا ووقف عند هذا الترابط معبرا عنه بهذه الصيغة أو تلك، مثل القول: "العلم مبدأ العمل والعمل تمام العلم" أو القول: "العلم المستعمل" أو "العلم الباعث على العمل" أو القول: "كمال العلم في حصول الاتصاف به" فكل معرفه عقلية نافعة لابد أن تنتقل من مستوى مجرد التمييز النظري إلى مستوى التخلق السلوكي بها ولو كانت لغة أو منطقاً أو حساباً لأنها بفضل هذا التخلق تنفذ إليها المعاني اللطيفة والقيم الروحية، فتقيها مساوئ التنظيف الجاف والتسييس الضار وتمدها بأسباب العمل المسدد والتأنيس المتبصر»²⁸، وبما أن الشعر يعد علماً أو فناً فإنه يقتضي- من المبدع أن يكون ملتزماً بالقضايا التي يطرحها، لأنه لا خير في أقواله ومعانيه إذا لم تجد من الشاعر إيماناً بها وكانت مجرد أقوال بلا عمل بها، فتكون قيمة النص المقروء في الفوائد العلمية والآثار المعنوية التي يولدها عند القارئ.

4 - الوظيفة الأدبية، مقاربات بين جان بول سارتر وطه عبد الرحمان:

نحاول في هذا العنصر من البحث أن نرسي قاعدة مهمة في مفهوم الوظيفة الأدبية وهي أن نستفيد من جهود كلا من طه عبد الرحمان وفكرته حول ارتباط "العلم بالعمل"، وجون بول سارتر وفكرته حول "الالتزام".

أن المتأمل في الكتابات الأدبية القديمة والحديثة، يرى أن هناك من الكتاب من التزموا بقضايا مجتمعاتهم مدفوعين ببواعثهم الذاتية وأحياناً أخرى، ببواعثهم الخارجية غير أن "سارتر" يميل إلى الدافع الذاتي، يقول: «إنما الكتابة تتطلب مراناً وعملاً مدعماً، وضميراً مهنيّاً، مع الشعور بالتبعات. وهذه التبعات لسنا نحن الذين اكتشفناها، بل على النقيض من ذلك: فمنذ مائة عام يحلم الكاتب بتكريس نفسه لفنه في نوع من البراءة»²⁹.

وإذا كان الكاتب يطرح قضايا في أدبه دون أن تكون لها فعالية (التأثير/ التطبيق)، فما جدوى أن يتكلم الكاتب، بعشرات القصائد والروايات والقصص، ثم هي تبقى مجرد

كلمات لا معنى لها ولا تجد طريقها للتطبيق، يقول سارتر: "وها نحن أولاء مقودون باليد إلى حيث يجب علينا ترك أدب القول، لنتج أدب العمل"³⁰.

وهذا ما نجده عند طه عبد الرحمان الذي وظف فكرة ارتباط "العلم بالعمل" في عمله الفلسفي الذي يعتقد أن مفهوم العلم يجب أن يرتبط بالعمل لأن العلم لا يعد مجرد أفكار بعيدة عن الواقع أو أنها مجرد ترف وأتما لا بد أن يحمل معه منفعة ما. لذلك يطلب من الشاعر أن يترجم عمله الفني إلى عمل تطبيقي، ثم عليه في الخطوة الثانية أن يلتزم بعمله الفني حتى تجد تلك الأعمال صدى لدى القراء وتقبل تلك الأعمال، يقول إبراهيم حاوي: "على الشاعر أن يتفاعل مع تجربته ومع قضيته تفاعلا مستمرا يكشف في آخر الأمر عن تصور فكري من جانب، وتصور فني من جانب آخر كما تفرز تلك الرؤيا الإنسانية رؤية شعرية سليمة تنم عن التحام عميق بالتجربة وفهم واع لها"³¹.

وبالعودة إلى الآية القرآنية السابقة التي جاءت تؤكد على ضرورة التزام الشاعر بما ينظمه من شعر، يقول الله تعالى: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»، لذلك بات من الضروري في مجتمعاتنا العربية التي تعاني من التخلف بشتى أنواعه أن ينتبه الكتاب إلى الالتزام بقضايا الأمة ويسهموا في الاهتمام بالمشكلات الأخلاقية وتقوية الوازع الديني والوطني وشحذ الهمم والترفع عن الدنايا ودفع الأمة إلى ما تصبو إليه من الرفعة والمجد ويمكنهم أن يجدوا في الأدب أفضل الأدوار والصور لتجسيد أي قضية يرغبون الحديث فيها، كما يبقى الدور الأكبر على الكتاب والتزامهم بما يألون.

خاتمة: يمكن للأدب، في ضوء الالتزام والقول المنتج لأدب العمل أي ارتباط "العلم بالعمل"، أن يقوم بدور كبير في نهضة الأمة ويسهم في إعادة تشكيلها وفق ما يرغب فيه أبنائها وما يتطلعون إليه من مجد.

ولأن الأدب يملك خاصية المتعة وما يقدمه من إثارة للمتلقي، فهو يساعد على تقديم تلك القضايا في قالب ممتع وتخيلي يمكن الأدباء أن يضعوا فيه ما يفيد أمتنا من قضايا لا تجد لها حلا كالقضايا الأخلاقية، وإذا وجدنا من يقوم بهذا الدور فأنا سنكسب فرصة مهمة للتحوّل نحو التغيير المأمول.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- إبراهيم الحاوي: حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي مؤسسة الرسالة بيروت ط1، 1984.
- أرسطو: فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلومصرية مصر دط، دس.
- أفلاطون: الجمهورية، موفم للنشر، الجزائر، 1990.
- جان بول سارتر: ما الأدب، تر: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة، دط، دس.
- جان بول سارتر: الجدار، تر: نجلاء نادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر 2015.
- جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1964.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982.
- رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دط، 1987.
- عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ط1، 2003.
- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1 2006.
- عبد الرحمن شكري: ديوان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر، 2012.
- طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2.
- ك. م. نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين، تر: عيسى علي الكاعوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر ط1، 1996،
- محمد الظاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، الدار التونسية للنشر، تونس دط، 1984.

الهوامش:

- ¹ أرسطو: فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلومصرية، مصر، دط دس، ص 79
- ² عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، ط1، 2003 ص 233.
- ³ أرسطو: فن الشعر، ص 132.
- ⁴ أفلاطون: الجمهورية، موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص 466.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 465.
- ⁶ رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبيح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، دط، 1987، ص 37.
- ⁷ أفلاطون: الجمهورية، ص 467.
- ⁸ المرجع نفسه، ص 468.
- ⁹ رينيه ويليك، أوستن وارين: نظرية الأدب، ص 22.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص 31.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص 32.
- ¹² المرجع نفسه، ص 33.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 34.
- ¹⁴ ك. م. نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين، تر: عيسى-علي الكاعوب عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1996، ص 25.
- ¹⁵ جان بول سارتر: ما الأدب، تر: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، دط دس، ص 13، ص 14، ص 16، ص 19، ص 20.
- ¹⁶ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1982، ص 118.
- ¹⁷ جان بول سارتر: ما الأدب، ص 24.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 37.
- ¹⁹ جان بول سارتر: الجدار، تر: نجلاء نادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر، 2015، ص 32.
- ²⁰ جان بول سارتر: الجدار، ص 36، ص 37.

- ²¹ جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع مصر، ط1، 1964، ص 9.
- ²² المرجع نفسه، ص 14.
- ²³ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ط1، 2006، ص 622.
- ²⁴ سورة الشعراء، الآية 224 و 226.
- ²⁵ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984 ص 209.
- ²⁶ عبد الرحمن شكري: ديوان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر 2012، ص 205.
- ²⁷ إبراهيم الحاوي: حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 1984 ص 59.
- ²⁸ طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي المغرب، ط2، ص 86.
- ²⁹ جان بول سارتر: ما الأدب، ص 213.
- ³⁰ المرجع نفسه، ص 218.
- ³¹ إبراهيم الحاوي: حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي، ص 162.

